شهادات

- شاكر لعيبي
- سامر أبو هواش

حسرة الياقوت في حصار بيروت (1)

شاكر بن لعيبي التميمي البغدادي*
(ولد سنة 1375 هـ)

آخر عين رمقتني، بعتاب، قبل خروجي إلى لبنان كانت عين أمي. بعدها حدَّقتْ بي عيونٌ كثيرة في السهل والجبل، عيون جدَّاحةٌ وأخرى أكثر بِراً. من الغريب أنني كنت أخرج إلى لبنان، لكنني كنت أجد نفسي في فلسطين، أو في بلد هو في رحمة وطيبة واسترخاء لبنان، وفي آن، في نبل وشطط وفروسية وكرم فلسطين. هذه هي بيروت بالنسبة إلي سنة 1980 عندما هبطتُ أجرجر بقدمي غرين الزابين قرب مقهى «أم نبيل» في الفاكهاني. كان «جسر الكولا» أول ما طالعني وقربه كومة من التراب. هل هي يا ترى أول متاريس الحرب؟ كان عمري 25 عاماً.
من الاندغام الودي بالبحر، برخاء نسمات الجبل إلى الاندماج بالآدمي، بكل أنواع الكائن المنشق عن بداهات العالم العربي، ثمّة أرض كانت مقلقة بقدر ما كانت متألقة. لم تكن القذائف اليومية تلك السنة سوى منشطات شيطانية للروح الوثابة.

المشهد الصامت اللحظة لكن الملتمع في الذاكرة هو مشهدُ حيويةٍ تليق بشبيبةٍ جسورةٍ واقفةٍ على غصن حلمي يكاد ينكسر لفرط مائيته. مشهدُ غزالةٍ نافرةٍ، طافرةٍ في أحراش لبنان من أرياف فلسطين وأهوار العراق وقيظ الجزيرة. مشهد كرمة يجلس في ظلها المتحاورون في السياسة والأدب والمقاومة المسلحة، كما يجلس في فيئها الرطب كذلك أولئك المدمنون على قهقهات عالية مثل قهقهات «غيلان» الطالعة، ربما، من حشيشة بعلبك.

عندما قادني شخص إلى بيت الفنان العراقي يوسف الناصر في الفاكهاني قرب الملعب البلدي، كان أول

من طالعني أنف «ك.ع» المخرب. بعد ساعات وصل هاشم شفيق، وكان يسكن غرفة في البيت، وقفز عالياً من وطأة السعادة. كان ذلك الأنف المهشم القابع داخل قرنابيطة صغيرة اختصاراً بليغاً لحالة إخوتي العراقيين لحظتئذ.

بعدها سنتلمس جميعاً الحيطان المدعومة بالدم، حيطان الفاكهاني التي هي الجريدة التاريخية اللانهائية في امتدادها، حيث تناوب الشهداء والقتلى بالمرور عليها كخطاطيف الليل ذوي العيون الفسفورية، بالمرور والانمحاء فيها من أجل أن يحلَّ شريطٌ أسود آخر وعيون واسعة أخرى محلها، إلى الأبد.

لم تكن بيروت آنذاك عالماً صامتاً. كان صخب الأمواج المتحطمة في «الرملة البيضا» يتغلغل في روح السلاح الأسود المبعثر، الطائش في المكان.

أخوَّة النسيم العليل كذلك المار على قنينة عرق في شرفة المنتشين في جنائنها المعلقة. أسنانهم ملتمعة كذئاب، وعيونهم باتساع عيون الأرباب الرافدينيين وقلوبهم تعبق بالبارود.

بعد أيام قلائل سيطلع لي زكريا محمد بذات الشعرات البيض في رأسه، وبعين الابتسامة المائية الثابتة نهائياً على وجهه، بالضبط كما طلع لي مرة في «مقهى البرلمان» في بغداد السبعينية.
ثم سألتقي زهير الجزائري في ممر في محلة «الطريق الجديدة»، وسيحتضنني بشدة وبفرح غامر، وكان كأن حضوره الشخصي يزداد، حرفياً، بحضوري.

ثم ثمة أطلال أبي الهول، وملاحم أبي الجماجم التي لم يكن سمع بها بعد أطفال العالم، يمران «من هنا..» كما مررنا من هناك.
بعدها ستقودني ذراع الفلسطينية الصيدلانية «عايدة» إلى المخيم، حيث وُلِدَتْ، وحيث لم تتخل بالونات الأولاد عن ألوانها رغم هدير العواصف. كنا نحييك مشروعاً شخصياً حبياً لم يتحقق أبداً، وكنا نذهب كذلك إلى شواطئ «الرملة البيضاء» للإستحمام. كانت ترتدي مايوهاً من قطعة واحدة. مرة ضرب الموج صدرها فانفلتت رمانته سخيةً مع الماء، وكانت تمط «المايوه» من أجل تغطيتها على خفر.

لماذا لا أرى إلا فصلاً مشمساً أطول من حبل غسيل جاري الحلاق في «نزلة أبو شاكر» عند المرابطين، فصلاً ربيعياً على وجه الدقة، حيث الشجرة وحيدة على الجبل المجاور لكن دائمة الخضرة، هو من يهيمن على المناخ البيروتي. حتى العوانس اللواتي يدخنَّ النارجيلات بين صَلْيتين من صليات الكلاشنكوف يبدون الآن أكثر حسناً من جميع ربات الحسن في العالم.

اشتغلت في النهاية في جريدة «فلسطين الثورة». أتذكر على وجه الخصوص النبرة الموسيقية الميلودرامية في صوت المحررين وأستعيد الأسنان الصفراء «لعصفور» التي لن تلمعها ذاكرتي رغم جسارته فيما بعد في محاورة المفاوض التلمودي ذي الأسنان الأكثر التماعاً من شتاء الدببة القطبية.

كانت الأشياء تتلبس بساطة غضار صيني.

الأشياء مدوَّرةٌ حتى لو سقطت قذيفة مكورة على صحنك الدائري ذات صباح رائع وأنت تأكل «مقلوبة» في «مقهى أم نبيل». أو حتى لو كنتَ لا تأكل شيئاً البتة عند صديقي الشاعر والمترجم «جاك الأسْوَد» قرب الجامعة الأمريكية، ليس بعيداً عن «مرّوش». الرائحة رائحة مخلل لاذع في كل مكان.

وهناك السادة في الطوابق العالية: مكتب «أبو أياد» الذي خرمته القذائف الطالعة دون توقف من الظلمات على نهار بيروت الصيفي، والبناية التي كان يقع فيها مكتب «أبو جهاد» التي رأيتها بعد الحصار مثلمة من كل صوب. وبنايات القياديين الآخرين التي انطوى البعض منها الواحد على كتف الآخر مثل أوراق مجلد عتيق محترق. أما غاليري الفن التشكيلي الفلسطيني أمام «جامعة بيروت العربية» فقد اختفى تماماً تحت ثقل ركام الجدران المجاورة.
كان عقد الحبيبة ينفرط ذات مساء حربي كئيب على السرير المخملي.

أية رحمة في قلوب اللبنانيين لكي يحتملوا وطأةَ القلب العربي الكبير المصاب بالآهة، لكي يستوعبوا شذّاذَ الآفاق، النُّمورَ المستفزّين المطرودين من الغابة العربية، الحكّائين ذوي الخرافات، الغواة. أي حنان في فؤاد ذلك الجزء الغربي الذي لم تكن تغرب عنه شمس الكائن الحر.

بالنسبة لطائر صغير القلب لم يهاجر البتة مثلي هجرات موسمية، فالوقت كان وقت العين المفتوحة كلية من أجل «معرفة» أحسن مغيبة عن فضائه الأصلي. من الجامعة الأمريكية إلى مقهى المودكا ومن «الأوزاعي» إلى «رأس بيروت» كنتُ أحرث أرضاً بكراً. كان بيت الشاعر أدونيس يقع في البناية المقابلة لآداب الجامعة اللبنانية في اليونسكو. ذات مساء سنحتسي خمرة عنده وسأحدق طويلاً في يديه المعشوشبتين خاصة. تحت تلك البناية كانت تقع «كافتيريا جورج» حيث كان الشاعر والأستاذ الجامعي رياض فاخوري يواظب على الطوفان في لجج الألسنية التي كانت جديدة نسبياً يومذاك على الثقافة العربية. صبية شقراء من سُنّة بيروت أحبتني هناك، وبنت درزية حدثتني عن عذريتها، أنا الذي كدتُ أموت في الزغب المرفرف أعلى شفتها الرطبة المنتظرة.

كان الهواء رحيماً في بيروت، والغروب أصيلٌ جداً ونادر على الرغم من هذيانات الأسلحة.

كان هاشماً صديقي في زلازل القلوب الأسيانة وشراكة المغامرة التي تقلق قلب الحسود. معاً كنا نذرع الأفق الغربي كله، كنا نمسحه بأعيننا وقلوبنا ذراعاً ذراعاً وزاوية زاوية، حتى أننا كنا نعدد من كان يرتاد تلك السينما الجنسية «تياترو» الواقعة على خطوط التماس التي كان يرتادها لبيدو الأمة العربية رغم عين «القناص» الأعور الوحيدة الـمُراقبة خلف ستارة سوداء كانت تخفي المارة عن سواد قلبه.

كأنك في العذاب الذي تتأمله وتشهده في آن.

كنتُ، والله، فتى غراً في عالمٍ من حُذّاق العرب، ولم أكن أسيطر على مواهبي المفترضة. فعندما دعاني «ميشيل النمري» للعمل في مجلة «الموقف العربي» وافقتُ على الفور براتب أنحل من إبرة. كنت أجد في المكتب قبالتي حيدر حيدر ومن بعده غالب هلسا الذين كنت أسمع عنهم فحسب وأقرأ لـهم. كان هناك آخرون سيصيرون أسماء لامعة بعد ذلك مثل المصرية سلوى البكر والسوري نوري الجراح وغيرهما .كنت قد تفتقتُ عن شهية أدبية، وكنت أكتب بنهم في نقد الشعر والقصة حتى أن بعض دور النشر اللبنانية كانت تحاول غوايتي سراً للكتابة عن إصداراتها الجديدة مقابل أن تنشر لي مجموعة شعرية أو كتاباً. كنتُ غراً وفضلتُ أن تنشر لي «دار العودة» مجموعتي «نص النصوص الثلاثة». أحمد عويدات وأحمد عبد الرحمن الفلسطينيان هما من دعماني بالفعل مع قلة معدومة من الصحاب العراقيين.

كنتُ غراً وكان الهواء عليلاً.

كنا نتدافع في مكاتب الإغاثة، في ملاجئ الحزب الشيوعي اللبناني، في حدائق الأمريكية، في الشقق المكتظة بالعراقيين، في فنادق الدرجة الأولى، في مقارّ الحزب القومي الاجتماعي السوري، في أروقة الصليب الأحمر الفلسطيني، في رأس بيروت الذي يشبه قلبها، في ريش الغراب قرب «برج حمودة»، في برج بابل، في «برج البراجنة»، في ضاحية العمائم التي تصد الريح، في برج الماء المنتصب في «الروشة»، قرب هنري ميللر في برج الجدي، في «كورنيش المزرعة» حيث باعة الخضار يصرخون في أحراشها القديمة من أجل لمعان جلدة الطماطم، «ساحة البربير» ثم «البسطا الفوقا» و«البسطا التحتا». نتدافع في العمى الواضح في كل بقعة يدب الناموس الصاحي فيها، ويغفو الناسوت قرب أطلالها إلى الأبد.

كانت القبلات تتساقط مني على خد عايدة، والقنابل تتمرغ في التراب القريب من جبّانة أسلافها في «مجدلين».

كنا (أم فرح التي كانت لا تزال جد صغيرة، وأبو فرح، يعني عدنان حسين وزوجته، وزهير الجزائري وآخر لا أتذكره اللحظة) قد سكنا في شقة كبيرة قرب «الملعب الرياضي». لسوف أمر على يافطة «دار الآداب» قرب جامعة بيروت العربية لكي أصعد عالياً إلى خرائب الملعب وأصل إلى البناية وأصعد إلى الطابق السادس «أم كان الطابق السابع؟»، ومن الشرفة كنت أرى مرات أثناء الإشتباكات مع «الجبهة اللبنانية» لهب القذائف القادمة من الشرق الهمجي لتحطيم الغرب الوثني. كان احتفالاً مهولاً للموت.

لم تكن أسناني قد اصفرت بعد لفرط دخان السجائر الذي سأبتلعه، ولم تكن أحراش الجبل حزينة.

كانت السماء واطئة، وكانت أصابع عذراوات لبنان يمسسنها كل مرة يرغبن بذلك. وكنت أطلع لأرى حماسة «أبو أيوب» الباقي ديمقراطياً أبداً عندما كان يسكن في «الخندق العميق»، وأرى مشاريع السوريالية الشيوعية العربية التي لم تتحقق. من مكاتب الجبهة الديمقراطية إلى مكاتب «فتح» نحو مكاتب «أبو نضال» الخفية، من متاريس القبائل العتيدة في الضلال إلى سينما ريفولي، من ديك «النهار» إلى «السفير» الوطني، من ورشة الحدادة في الأزقة الخلفية التي نسيت أسماءها إلى ريش الغراب المتناثر في البقعة الجغرافية الضيقة، يكاد الكائن يطير.

هبط آدم عندي ليلة في كهفي في «نزلة أبو شاكر»، آدم حاتم الواصل، هو وغيلان، إلى بيروت قبلنا جميعاً. هناك كنت أتقاسم ونوري الجراح الشطيرة واللغة العربية. كنت أستقبل هناك أيضاً صديقاً تونسياً هو هشام القروي، ومن ثم شاعراً عراقياً ملتحياً «م. غ» من أجل إخلاء الكهف له وأنثاه. كان أخو البنت جارتي اللبنانية حلاقاً كما قلت، وكانت آلاف المناشف المستخدمة في صالونه ومن شتى الألوان تمتد على حبل طويل، طويل إلى حدٍّ بدا لي غير معقول.

لم تكن القذيفة قد استقرت بعد في أحشائي، وكان الخراب يلتقي نقيضه في تلك الفنادق الراقية التي كانت المقاومة الفلسطينية تستقبل فيها ضيوفها من الأدباء والساسة العرب. «البوريفاج والكومودور» كانت تعبق بطعم رخاء وثراء وبهجة. التقيت وهاشم شفيق في «البوريفاج» نفسه أمل دنقل وكان قد طالع للتوّ عدداً من مجلة «البديل» التي نشرت قصيدتي «رثاء أور» وقال لي:

– هو أنت..؟

لأنه كان قد أحبها. ما أحمق الموت!

لم تكن زوبعة الحصار قد أرعدتْ، والقنافذ لم تكن قد انفجرت بعد في شوارع العوانس والعذارى والحيارى والغرباء في بيروت.

كان غسان زقطان يطلع لك وزوجته الشركسية بأزرق الجينز الفاخر، ويداهمك علي فودة، طيّب الله ثراه، ورسمي أبو علي بين تصاعد الدخان في مقهى هامشي عُمِّد باسم «مقهى أبو شوارب» لأن صاحبه اللبناني الطيب «أبو علي» كان يمتلك شاربين نادراً ما شوهدا منذ سقوط الدولة العثمانية. كان يرتاد المقهى كذلك أنصار الألوية الحمراء وإرهابيي الرأسمالية المعاصرة، الألمانية واليابانية خاصة. وعلى ما يبدو فإن إحدى أجهزة المخابرات العربية قد فجرته في نهاية المطاف.
قليل من الحقيقة كان كافياً للجميع وقليل من التبغ للشعراء.

كان الهواء مالحاً في رئة «عايدة» التي كانت تصعّد الآهات إلى فمي. مالحاً وحاذقاً. وكان يشابه ذلك الهواء الذي تزفره أمهاتنا الصابرات في غرفهن نصف المعتمة. كنت أريد ريحاً معبأة بعبق الحياة. كنا نريد، جميعاً، أغنية أخرى أقل حزناً وأكثر توتراً. كنا نسعى إلى إحلال أغنيات «فيروز» في الحياة الواقعية نفسها، حيث الطفل الرمز المعشوق «شادي» لا يختفي في الحرش، في الموت. كنا نحب الحياة برعونة وكنا نحب بيروت رمزاً للحياة و«للحي – العضوي» العربي الممكن. سوى أن الأحبة كانوا يختفون بوضوح في إبَرْ القنافذ إلى الأبد. وكان حصار بيروت، لذلك، أسوأ اللحظات في حياة مسعورة رغبت بالتهام عشبة الخلود.

كان الكلب يسعى حثيثاً كل يوم إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط لكي يعود ويقعي قرب السفح وديعاً.
كان ثمة هجوم غروبي كاسح على شواطئ «الروشة» من طرف اللبنانيين القادمين بوابورات الغاز و«المكسرات» والكراسي النقالة الخفيفة والمرطبات والأطفال والعلكة وأرداف النساء، في مواجهة درامية مع البحر عند مغيب الشمس.
بعد الحصار كانت دمعتي تتحجر عند عتبات البنايات المهجورة التي كانت شرفاتها مسكونة بفساتين بنات مهجّري الجنوب المقصوف بالقنابل العنقودية التلمودية السوداء.
كانت النعمة تتهدج في حروف الأب «جورج أبي خضر» في جريدة «النهار»، بينما كانت النعمة والنقمة كلاهما تترنحان في صوت «مارسيل خليفة» على أثير المرابطين، أي «إذاعة صوت لبنان العربي» التي كانت تبث من «جامع جمال عبد الناصر» آخر أيام الحصار:

«بيروت حزينه

بيروت حزينه

بيروت حزينه..»

الأغنية التي لن يقولها لاحقاً في أية مناسبة أخرى.

لم يكن للاعتبار التقليدي اعتبارٌ. السجائر مهربة والليرة ما زالت صاحية، الطماطم لماعة في السوق وعلى

الأرصفة تتعايش التجارات والخسارات، باعة المفرد والجواسيس، الجميلات والمحجبات. في الفترة (1980–1982) كانت تغدو مقهى (...)، حسب شهادتي، مجمَّعاً للمثقفين اللبنانيين والفلسطينيين والعرب. كانت تحتمي، بأمان، في ظل بناية شاهقة حديثة تعود لبنك أحسبه البنك اللبناني–السوفياتي. لم أشاهد أبداً بنكاً سوفياتياً طيلة حياتي إلا في ذلك الموقع.

كنتُ أتخذ مسافة ضرورية مع ثقافتي العراقية، وأدخل قانعاً في الروح الشامي.
الصحافية فاطمة المحسن كانت قد انفصلتْ للتو من زوجها الأول واجدة في بيروت أفقاً روحياً جديداً لها سيتفتق بعد سنوات عن ناقد وناقدة. العراقيون سيتابعون الخسارات الشخصية والطلاقات بنجاح باهر مع تصاعد حدة الأقاويل المرحة والشبقة الطالعة خبط عشواء. الشاعر سليم بركات كان يحتسي، بأمان، كحوله اليومي في مشرب «علاء الدين» الذي كان يديره رجل من «الشعبية». صادق الصائغ كان يسكن بناية بركات ذاتها وكان يجاهد في إصدار «البديل» عندما كانت رصاصة قادمة من الكون المحدب تتجول في غرفة عمله. كان العراقيون يطبعون لدى «الديمقراطية» وينامون في بناياتها مثل الشاعر الشعبي أبو سرحان والمسرحي كاظم الخالدي المختفين إلى الأبد لدى «القوات اللبنانية» لدى محاولاتهما الخروج أواخر أيام الحصار نحو الشام. كان العراقيون ينتمون إلى الحزب الشيوعي العراقي وأحزاب مشابهة أخرى. رياض النعماني ومحيي الأشيقر كانا يصعِّدان لغة حماسية من أجل الفورانات التي ستقلب مسارات الكواكب العمياء. الفتيات العراقيات كنَّ يخرجن للتو من الحمَّام البغدادي إلى حمَّامات الدم، مرعوبات من صورة المسدس وحدها ناهيك عن جسده الحديدي.
وليد جمعة كان، عن حق ولو بفظاظة وجلف، يُماهي بين عقيدة الجلاد وعقيدة الضحية ويسخر من الريف الخارج إلى المدن الكبيرة. جليل حيدر، بدوره، كان يجاهد أن يلعب دوراً خارقاً للعادة. ثم ثمة مجد الشاعر سعدي يوسف المتشعب، المدوخ في اللحظة الدائخة. وثمة العرق الزحلاوي والعيون الناعسة المتقلبة في فوحات بِلّور الكؤوس. عندما انفجرت سيارة مرسيدس مفخخة في شارع «الفاكهاني»، كنت قد مررتُ للتوّ قرب محل «حلويات أبو علي» – هو غير أبو الشوارب الموصوف – الذي كانت تختبئ المتفجرات جنبه. ربما كنت قد لامست السيارة، من يدري؟. تعالت أطنان من التراب وتحطمت الواجهات الزجاجية وكانت هناك حفرة عميقة سوف تطمرها وردة النسيان الحمراء.

كانت فلسطين محفورة في جسد العالم ذاك، في خاصرته، في عينه التي سيأكلها الدود، لكنها كانت منسية في الصخب اليومي لتاكسيات البوسطة الذاهبة من المزرعة إلى الحمرا وبالعكس.

لسوف أتذكر هنا صديقتي الصحافية «أحلام حسن» بتنورتها العريضة التي لا تخفي كرم الجسد الواثق من امتلائه ومرمر الرقبة التي تغار منها «أثينا» نفسها. كانت تزورني في مكتبي في الطابق الثاني من

مجلة «الموقف العربي» في نزلة «أبو طالب» آخرة الحمرا، مستوقفة السَّيارة تحت العمارة لوقت طويل معلنة انتهاء الهدنة بين نزوات العرب والعالم.

انفجار الحرب مثل انفجار الحصباء.
مثل تفتق التويجات على الساق الطرية التي لم يمسها أحدٌ بعد، مثل المباضعة تبدأ بمداعبات موحية، وتنتهي بترك أثر على الشفة أو الرقبة، أو كليهما، بعد آهة الموت اللذيذة بالطبع.

الحرب فاجرة تأكل الأحباب وتسوِّد التراب الأمغر. الحرب سدرة المنتهى التي ينام القتلى تحت ظلالها كما ينام الشهداء تحت ظلال السيوف.
الحرب حاءٌ حلقية حارة، يغص بها الكائن.

ثم ثمة «موسى السيد» وعائلته الكريمة، و«حسين البدري» المتوفى هذه السنة (2001) وسكرته الدائمة، وثمة السياسيون الهواة مخترعو الأحزاب الوهمية، المتطرفة من كل صنف المسميَّن هم بأسمائها مثل «على طليعة» – أي علي أبو رغيف – المُصرّ مع ثلة من الغواة على إدارة «حركة الطليعة الديمقراطية» بتمويلات سخية، ليبية في الغالب. وعشيقات الليدي تشارلي كلهن في «مايوهات» السباحة قرب العين الجاحظة للولد المستمني في عتمة الدهليز.

وثمة الشاعر عبد الكريم كاصد والمصورون الفوتوغرافيون وعدنان العيسى الذي سيعود إلى بغداد، وحملة الشهادات الابتدائية المتعرفون للتو على السياسة والحرية، والإذاعيون مثل فلاح هاشم في «صوت فلسطين» وقبضة مظهر عبد عباس، والهاربون من الخدمة الإلزامية، والمقاتلون في «خلدة» بجسارة. ثمة الشقق الجماعية وغسل الصحون الإلزامي ورواتب المقاتلين الشرفاء والحساء الساخن بعد النقاش الساخن والاشتباكات بين «جبهة التحرير العربية» والجبهات الأخرى. ثمة عائلة كاظم السماوي كلها، تحرير وشرارة «التي لن أراها إلا في شهر أيار / مايو من سنة 2001 في السليمانية مع ولديها» الـ تي كانت تسكن في شقة أرضية أمام صالة البليارد التي كنا نرتادها جميعاً مع صديقنا الشاعر شريف الربيعي المتوفى، رحمه الله، في لندن.

الحرب عين سخينة.

لم أكن هامشياً إلا قليلاً وأحببت البساطة، وربطتني صداقات مع الشعراء اللبنانيين عباس بيضون وجودت فخر الدين وشوقي بزيع وحسن العبد الله وغيرهم ممن كان يتحلق حول خيارات جريدة «السفير»

الوطنية. لم أتعرف البتّة على محمد شمس الدين، كما لم أدخل ولا لمرة واحدة لحظتئذ إلى مكاتب «النهار» لكي أتعرف على «شوقي أبو شقرة» الذي كان ينشر لشعراء جدد، عراقيين وفلسطينيين، خاصة للعراقي «أبي روزا»، نصوصاً لا أحبها بالضرورة.

كانت الخيارات واضحة ونهائية بالنسبة لي.
الهواء، الهواء، كنا نريد القليل من الهواء النقي.
عندما انتقلتُ، بعد أزمة سكن فعلية، إلى استوديو متواضع في شارع متفرع من الحمرا، كنتُ أراود مناطق بدت لي مسكونة بالمخاوف واللذة في آن. كنت أحسب نفسي هناك في أمان أكبر من الطلقة التي يمكن أن تنطلق في أية لحظة في مكان آخر. كنت نوعاً من «داندي» صغير، لكنه يحمل لغة وفكر يساريين غامضين، مشغول بمظهره الخارجي، خاصة بربطة العنق الخضراء. هناك كانت توجد بارات من نمط مختلف عن نمط بارات اليسار المتطرف موحَّد اللغة، توسوس بتعبيرات شهوانية صارخة، وتحتوي على نادلات بالغات الجمال من طرابلس وبيروت وبعلبك.

ثم ثمة بارات في فنادق الدرجة الثانية والثالثة والرابعة على طول تفرعات شارع الحمرا والتفرعات الطالعة منه إلى الأمريكية ثم الروشة. هناك كنت أكتب قصائد ومقالات للمجلة، منتبهاً كذلك إلى الشاب الوثَّاب، المنتصب في قلبي وبنطالي. في واحدة من تلك المشارب الفندقية التقيت مرة محمود درويش صحبة سليم بركات. قبل ذلك في مكاتب «الكرمل» في الفاكهاني كان درويش قد عدَّل عنوان قصيدتي المنشورة في المجلة من «ربيع الكلب» إلى «ربيع الثعلب» مشيراً إليَّ أن الكلب حيوان أليف ودافئ وأصيل. لم أكن أعرف ذلك، ولم أعرفه حتى الآن، لكنني قبلت بتغيير العنوان بناءً على نصيحته. ثم التقيته مرة ثالثة في نهاية الحصار عندما انتابته أزمة صحية كنا نزوره فيها في مسكنه القريب، كما أحسب، من «النهار».

عندما كتب درويش قبل الحصار يقول: «بيروت خيمتنا الأخيرة» كان يحدس الحدوس.

كان العالم البيروتي قبل حرب الحصار يطفو على رغوة. يطفو على هذه الحُبيبات المنتفخة التي تتصاعد أعلى قدح البيرة، أو تلك التي يصنعها الأطفال من تذويب الصابون بالماء، أو تلك التي يسببها تساقط المطر في حفرة ضيقة في شارع الآهات العالية. كان العالم يطفو على هذه الرغوة عينها المعرضة للانفجار في أية لحظة، ولأقل اهتزاز، ولأدنى فقدان للتوازن في القانون الطبيعي.

رغوة تنعكس عليها كذلك ألوان قوس القزح.

لم يكن أحد يحبِّذ فكرة السلامة. كان الخلق يموج في تهوّر مطلق، تهوّر ضروري، منزلقاً من طريق مسدود إلى طريق مشوَّكٍ.
أثناء حصار بيروت يتأكد المرء أن العرب أمة لا تدافع عن المدن الجميلة، وتفضل السهر تحت ضوء القمر من أجل تعلم الحساب.
قبل الحصار كانت لبنان تعيش في هدنة نسبية شذبت الأطراف كلها فيها نفوسها المعذبة: الموارنة المسيّسون وأبناء الجرد، بعلبك وزحلة، فاطمة ولورا، حسين ونيقولا، أبو الجماجم وأبو حنا، العرب عن جدارة والعرب المستعربة بصعوبة. كانت كلها تعيش في رخاء الهدنة، مطيبة الخواطر رغم الاختراقات هنا وهناك، بل كانت هناك نية لضبط المكان المتراكم، المتزاحم، المنسرب في كل اتجاه.

سنشرب من الكأس ذاتها جميعاً.

من الواضح أن الإسرائيليين قد اختاروا الفترة التي تجري فيها مسابقات بطولة كأس العالم لكرة القدم سنة 1982 لمحاصرة بيروت وإخراج المقاومة. وقد درسوا، في ظني، بعمق عميق هـ ذا الوقت الرياضي، حيث ينشغل العالم بالعبث الكروي وتنهض في الشعوب، فجأة، نزوات قومية، بل شوفينية، لا تنهض بها دوماً نصوص السياسة والفكر الرفيع والصحافة الجادة. كان العالم في خدر أمام التلفازات التي كانت تنقل مباريات كأس العالم. ربما كان العالم العربي أكثر غياً من غيره في متابعاته اليومية للمباريات لسبب تعويضي عام، وهو الأمر الذي درسه غزاة بيروت بدقة لكي يقللوا من حجم ردود الأفعال الشعبية العربية على الحصار. لقد كانت ردود الأفعال عند حسن ظنهم إلى حد بعيد. كان العالم العربي إذاً سادراً بغيه الكروي، غير قادر على تضييع الوقت لإشهار موقف، أو نية موقف، بحجم الكارثة المحيقة بمدينة عربية أساسية كانت تتقلب في عذابها تحت أبصارهم. اختار عالمنا المجيد أن يشيح بعينيه نحو الساحات الرياضية الخضراء بدلاً من أن يحدق في الدم الأحمر. كان حماسه للأهداف يفوق حماساته لحصار ضمير العرب في لبنان. كان الجنوب يسقط ومخيمات صور وصيدا تصبر، ثم «الدامور» و«خلدة» ومثلثات المدينة وأخيراً مربعاتها، براً وبحراً. كانت البوارج الحربية تلقي، حرفياً، بقاطرات معبأة بالبارود. كنت أشعر أن هناك قطاراً حقيقياً طائراً، محملاً بالسلاح كان يخترق المدينة ويسقط، خاصة على الفاكهاني وما يجاوره. كنت أسمع دويّ اختراقه للفضاء من شرفتي مساءً، وهو يزعج الهواء ويخضُّه، لكي يخض جلدة الآدمي، شبه المحارب، شبه المسالم مثلي.
يصير الهواء المار أعلى قرب الشرفة حاراً ومقلقاً لهذا السبب. وتصير الكتابة عن الموضوع رديفاً للكآبة.

كانت القنابل العنقودية تدمر عناقيد العنب على حواف المدينة. ما زال الأولاد يلعبون ببالوناتهم أمام بنايتي في الشارع المتفرع من الحمرا. لم أر شيئاً بعد. كانت الداعبات الخفرة ، الحساسة تبدأ للتو، لكن

بوقاحة، وتمتد إلى المناطق الأكثر حميمية، لكي يبدأ العواء في نهاية الغروب.
هذا من جهة السماء، أما من جهة البرّ فقد كانت الأرض تتحرك بشكل ملموس عند ارتطام القطار بها. كانت الأساسات المتينة للعمارات البعيدة عن مكان الارتطام ترتج وتترنح. كانت القنابل تستهدف المسامات الحسّاسة في جسد المدينة.
زلزال مخدر كما كان يمكن للمرء أن يحسه، وارتجاج غامض، يقلق النفس بسبب توغله عميقاً في كيان الكائن المُحَاصَر مثل عواء غامض مهدد قادم إلى مسامعه من أقصى البرية. قال الشاعر :

«ذئاب بأطراف بيروت تعوي
عووووو
عوو
و
و
دمٌ فوق أعشابنا وحجارتنا والمياهْ
وصدى لعواءٍ طويلٍ
طويلْ
يجيء من الظلمات العميقةِ
كي ينتهي عند أقدامنا...
(...)
إننا الشاهدون ذوو الأعين النُجْلِ،
كنا نحدق في دفقة الدمِ
كيف تسيلُ
بصمتٍ تسيلُ
تسيلْ
وتأتي على ورق يابس
وعظامٍ وعشبٍ
وتمتد حتى تغطي النهار النبيلْ» .

فجأة يحلّ ظلام الله وتنقطع معه لفترة جد طويلة أسلاك الكهرباء.كان مسموحاً للقطط فحسب بالرؤية في العتمة منافسة بذلك الطائرات المبْصِرَة بناظوراتها فوق البنفسجية.

كان الكائن، من جهته، فوق بنفسجي وأعمى. وكان للعصافير وحدها القدرة على الغناء في الصباحات

التالية.

الرعدة هي ما كان يخنق الهواء أثناء القصف الأعمى، وهي ما كان يتوغل في ذاك الدم الحي الشاهد بعينين محمّرتين.

كان الرعد المجنَّح يطلع من الأظافر النائمة في اليد المقبوضة التي تمسك الرأس لكي لا يسقط في الهوّة.

يتعلم المرء أثناء حصار تاريخي مثل حصار بيروت أن الكائنات الآدمية غير متشابهة إطلاقاً في انفعالها إزاء الجوهري مثل الموت. إنها غير متشابهة، مخيبة أحياناً وبطولية مرات. وإذن فإنّ البعض من سكان بيروت ومقاتليها العرب قد قرروا الخروج من المدينة إلى الجبل، إلى الشام أو إلى أرض آمنة أخرى. آمنة لكن موسوسة. البعض الآخر قرّر البقاء متنقلاً بين الملاجئ والشرفات في ذهاب وإياب متأرجحاً بين الأمل والغضب، بين الغيبوبة في الأفق والصعود إلى الحافات أو الهبوط إلى الأعماق، لا أدري اليوم المحفوفة بالنار من كل صوب.
البعض السائر بين اليقظة الصحيحة والحلم العميق هو من يصنع الأشياء الباقية، متأملاً في البدء في حقل متخيَّل من الرز، ثم قابضاً على حفنة من الرز سينثرها لاحقاً في رحابة الهواء الأخير المهفهف فوق الرؤوس السود ذات البيريات المدعوكة، المطرودة من بيروت.
بالنسبة لشاعر مثلي فإن السؤال الساذج الذي ما فتئتُ أطرحه على نفسي أثناء رشيش النار أيام الحصار هو: ماذا يريد الإسرائيليون بالضبط من الفلسطينيين؟ ماذا يريد ابن العم الضائع بين تراب الكتب العتيقة والمنافي والدم، الذي تعلم القتل من جديد في بيروت بعد أن كان قد نساه طويلاً في منافيه ودموعه المتحجرة. ماذا يريد هذا الذئب المجروح الذي ما زال يعوي في الوادي؟

الصباح دام في اليوم التالي وأعمدة الدخان تتصاعد من أنقاض قرطاجة.

قررت الذهاب إذن لأشتري فاكهة النار من الفاكهاني. كان الخواء مطبقاً هذه المرة؛ لأن القصف كان على أشده. ظللتُ أتصبب عرقاً وأنا أجري مختاراً الزوغان بين جدران البنايات السالمة والشوارع التي كنتُ أحسب أن الطيارين لن يعيرونها بالاً. ما انفك المقاتلون يطلقون الرصاص والقذائف التي لا تصل مدياتها، كما كان السوفيت وحلفاؤهم يرغبون، إلى مستويات الطيران المغير. كانت الطائرات تحرث الهواء وتفسده بحرية .

كان «تحسين العراقي» وهو رجل أقل ما يُقال عنه بأنه غريب الأطوار نوعاً ما، لأنه كان منهمكاً ومهموماً

منذ زمان طويل بآليات الطيران وحركة أوراق الشجر وميكانيك الريح وفاز منذ صباه في بغداد بأكثر من جائزة تشجيعية في هذا المضمار في البرنامج الشعبي «العلم للجميع» لكامل الدباغ، ثم أنه وضع تحت تصرف جهات فلسطينية معينة معارفه من أجل تصميم طائرات شراعية لا تلتقطها رادارات العدو. تفتق ذهن تحسين أثناء الحصار عن فكرة سوريالية تهدف إلى إسقاط طائرات العدو، وهي أن يجري تعبئة بالونات بلاستيكية ذات ألوان متعددة بغاز خفيف يساعد على التحكم بارتفاعها حسب كميته، تُشدّ بأطرافها بعض المسامير، وتطلق لكي تغطي جميع سماء المدينة على ارتفاع يعادل ارتفاع الطيران الإسرائيلي، وهكذا عندما تمر الطائرات من بينها فإن البالونات ستقوم بمهمتين اثنتين: إرباك الطيارين على الأقل من جهة ومن جهة أخرى فإن المحركات التي تقوم بالطبع بشفط الهواء قد تشفط بمحض مصادفة سعيدة بعض البالونات المزودة بالمسامير، ستدخل المسامير في المحركات وتوقف قلبها عن الخفقان. لا أدري فيما إذا نُفِّذت الفكرة أم لم تنفذ، لكنني أعرف أن أوساطاً معروفة باتزانها قد تحمست للفكرة، ربما بسبب شدة يأسها.

هذه واحدة فقط من أفكار تحسين الغريبة في تلك اللحظة الغريبة دون جدوى.

كان يمكن لأفكار تحسين تغيير مجرى الحرب على نحو آخر أقل كآبة. ما عدا منطق القوة فلا أحد كان يعير بالاً إلى منطقٍ مختلفٍ بشكل جذري، خاصة الإسرائيليين.

انتقلت الإذاعة إلى مكان آخر، فقد كانت مستهدفة، وجرى استبدالها بمحطة إذاعية سرية لا تبعد كثيراً عن الملعب الرياضي الكبير، أي بالضبط قرب فوهة البركان المحموم لأن الملعب كان كذلك مخزناً للذخيرة والعتاد الفلسطينيين كما كان يعرف الإسرائيليون عبر عيونهم. لقد هجموا عليه منذ الأيام الأولى للحصار أشد هجوم، وهدموه تماماً ومات بسببه أكثر من صحافي كانوا يحاولون تصوير الغارات اليومية عليه، أعرف من بينهم مصوراً فوتغرافياً فرنسياً كانت عدسته تحاول نقل المشهد إلى حكماء العالم السبعة.

كان العالم أعمى.

قررت الوصول، مرة، مجنوناً تماماً وفي أشد لحظات القصف استعاراً، إلى تلك الإذاعة لإيصال مادتي الإعلامية. لم تكن الإذاعة لتبعد كثيراً عن «سجن فتح المركزي» الذي أشرع أبوابه للرياح. كان يتوجب المرور بالبناية التي تقع فيها مجلة «المستقبل» – نبيل خوري وقبل ذلك كان يتوجب المرور بحاجز لفتح. كان الطيارون أكيدين من خلو الجو لألاعيبهم البهلوانية وكانوا يصوّبون الآن بنادقهم الآلية نحو الكائن الحي المتحرك: قناصو الأعالي بعدساتهم وثوب الحية. كنت أركض هذه المرة بحمّى وخوف حقيقيين.

كانوا يصطادون الظل الراكض نفسه. وصلت إلى أطراف «كورنيش المزرعة»، ثم قفزت الشارع بحركة طائر مذعور إلى جهة «المرابطين» عند «نزلة أبو شاكر» ثم توغلت حتى الفاكهاني، ودخلتُ في غابة النار. كنت أستمرّ بالجري دون هوادة مستديراً نحو جهة «الجامعة العربية» لائذاً بجدرانها. كان القناص يحاول اصطياد الفريسة، وكنت أحسبه يصوب بندقيته نحو رأسي أنا على وجه الخصوص.

لقد خفت خوف حيوان أعجم وعدتُ أدراجي. أعترف بأن الإسرائيليين قد أخافوني، وأي فتى أخافوا.

كان العرق الهابط من فروة رأسي قد غطى عيوني. كان العالم أعمى.

كانت الكتابة للإذاعة هي المهمة الأساسية التي قدر عليها مثقفو العرب الحاضرون في بيروت المحشورة بين فكي الأسد ابن عمنا الضاري. كنا ندبج المقالات الحماسية دون أن نستطيع تغيير مجري النهر. كان المذيعون قد بحت أصواتهم واشتدوا غيظاً.

في إذاعة «المرابطون» كان نوري يذيع أحياناً قصائد تحريضية مع رفيق نصر الله و«ندوة الزين» وبنت من بيت الملاح. كان غالب هلسا، وكان يسكن البربور، والجراح يخرجان أحياناً إلى خطوط التماس للتحدث مع المقاتلين.
نوري الجراح وكريم عبد سكنا أخيراً سوية وسكرا في بناية تقع فوق «مسرح المدينة».

كان علي فودة يدخل الكومودور ليوزع جريدته «الرصيف» على جلساء الفندق. خرج وأخذ سيارته، وذهب إلى «عين المريسة». بعد عشر دقائق نزلت قذيفة وطعنته قرب البحر. قال الشاعر :

«ها قد متَّ كما يجدر بك أن تموت
لِصْقَ البحر، كي ترضعه
ولِكي يأخذك إلى حيفا

سافرْ أيها الثعلب الساخر
اسبقنا أيها الفلسطيني الشقي

ها قد متَّ فوق رصيفك الفقير
نافورةً في «عين المريسة»
نافورة مرارة

نافورةً من الدمع
ونبعَ بكاءٍ عذب

لقد متَّ (هل متَّ حقاً؟)
ما كان يجدر بك أن تموت
ماذا نفعل الآن بدونك
ماذا نقول لليتامى
لبائعي الخضار
لمطاعم الدرجة الألف
للأنقاض في أرواحنا
للمكاتب التي تكره؟

لقد متَّ
سافر في الموت إذاً
مثلما سافرتَ في الفجيعة، واحلمْ
اسخرْ من هذا الموت، واسخرْ
أيها الثعلب الأشيب
يا حبيبي...»

ثم استشهدت في غارة أخرى صديقتنا (نِعَمْ) في عزِّ صباها :
«وأنتِ أيتها الصبُيَّرة الفلسطينية
ماذا سنقول لربيعك الذي انقض عليه البرابرة؟
ماذا سنقول لجثتك الباسمة
ماذا؟؟
هل نغنِّيكِ يا ساعة مائية ؟
هل نبكيكِ يا جذوة ؟
هل تكفي الكلمات (تباً لها)
هل....؟»

قبلها بقليل استشهد في إحدى مكاتب الديمقراطية في تلك المنطقة المعروفة لدى العراقيين «بالـمَسْطَر»(2)

– في الطريق الجديدة – العراقية «ناديا» التي كانت تعمل بالإخراج الصحفي والرفيق الفلسطيني «أبو الغضب» عندما كانا يتهيأان لإخراج العدد القتيل من «البديل».
لترفرف روحيهما خضراء في العلى.

كان الأستوديو الذي أشغله في الحمرا صغيراً وضيقاً لكنه بعد الهجرة الجماعية لإخواني العراقيين من الفاكهاني إلى الحمرا خاصة، كان يكتظ أحياناً بأكثر من خمسة عشر شخصاً. لن نذكر بالاسم من الخائفين المرعوبين أحداً، ولكن أتذكر أحدهم وقد أقعى في لحظة قصف عشوائي طالت أطراف الحمرا في زاوية الأستوديو وهو يجهش بالبكاء خوفاً ورعباً.

كنا مع ذلك نخرج أيام الحصار، كما لو في نزهة، لزيارة أوقاف الجحيم، إلى الفاكهاني. فعندما طلب مني هاشم شفيق أن نذهب معاً إلى «الطريق الجديدة» لجلب بعض الأوراق والحاجيات والثياب المتعلقة بزوجته الجديدة حينها، إيمان «أم سرو لاحقاً»، فقد كان صديقي وأخي يبكي هناك بين ذراعيَّ، لا فَرَقَاً ولكن ألماً وكأنه أحس، مثلي، بأنها زيارتنا الحميمة الأخيرة للمكان العزيز.

قررت القيام بعدئذ بالعمل كمصحح في جريدة الحزب الشيوعي اللبناني «النداء». كان التنضيد الألكتروني يجري في شارع ضيق في حي أجهله حتى ذلك الوقت من أحياء بيروت الغريبة.

لم يكن القصف يتوقف وكان يختار أهدافه بدقة هندسية.

عندما ذهبتُ مرة إلى «النداء»، كانت قنابل إفراغية قد كوَّمتْ بناية شاهقة حجارة فوق حجارة، عينٌ بعد أثر.

كنتُ مندهشاً لفعل الحرب الذي يتركني حياً رغم مَشاهدِهِ الأكثر غرابة وإثارة ودماراً في حياتي.

كنتُ واحداً من عدة مصححين لبروفات الجريدة، ولبعض الوقت كنت أنشر يومياً تقريباً قصائد ساخنة عن الحصار اخترتُ لها عنواناً موحداً هو «أيام الجمر»(3). أكثر من ثلاثين قصيدة عن الحاضر ها هي بعض عناوينها: «حصار» «عدو» «مدينة» «بيروت» «حصارهم» «أفق وملجأ» «احتمال» «توكيد» «ثبات» «وقف النار» «المدينة» «الليل» «تجويع» «حرب» «بشر المدينة» «ليل المدينة» «الأسلحة» «أغنية بيروتية» «وطنيون» «وطنيون – مرابطون» «اشتراكيون» «جنوبيون» «حالة الدار» «حالة الجارة» «حالة المقهى» «حالة الأصدقاء» «حالة المقاتل» «حالة بائعي الخضار» «حالة الفتى كريم» «حالة يوم الأحد» «حالة ندى» «حالة

الإحتمال» وهذه هي المنشورة في مجموعتي «استغاثات» 1984 في دمشق، أما الأخريات فليست بحوزتي حالياً، لكنها منشورة في أعداد يومئذ من جريدة «النداء».
لم يكن الفتى البيروتي «كريم» ليتردد يومياً عن نقل البروفات من مكان التصحيح هذا إلى المطبعة بدأب وجسارة غير متخوف إطلاقاً من القذائف العشوائية التي كان يمكن أن تسقط في أي مكان من بيروت.
قال الشاعر:

«يروح ويغدو إلى المطبعة
تحت صوت القنابلْ
لا يخاف كريم
البنادق مشرعة
يروح ويغدو إلى مجدهِ
لا يخاف كريمْ» .

صبية لبنانية من جنوب لبنان اسمها «ندى» كانت تعمل في ورشة التصحيح تلك كعاملة تنضيد كما أتذكر. كانت مساءات العمل مضاءة بالمولدات الكهربائية. من بعيد كنت أرقبها وكانت تتطلع نحوي بعيني حمامة. كان الفضاء يرتج أحياناً من شدة القصف في الأحياء الأخرى المجاورة. كنت أتكلم اللهجة الشامية، ومازلتُ قليلاً، ولم أكن أعرف كيف أعلن حبي العميق وامتناني لندى، إلا عبر نظراتي العاثرة مثل حظي. وكانت تستخدم عينيها بطهر بتولي. كنا نقول لبعضنا فحسب: إلى مساء الغد. كنتُ أصل إلى الجريدة في نهاية المطاف بروح العاشق الملهوف متقلباً بين جمرتي الحرب والحب كليهما. وكانت هي تتسرب رغماً عني في قصائدي عن الحصار. قال الشاعر :

«لعينين ضاحكتين
للأكف الصغيرة
لأنفٍ وأنفاسهِ
للزهورِ على الثَوبِ
للصوت مرتبكاً
للأنوثة عاليةً...عالية
للجنوب الذي تلكنينْ
أرفع الزهرة الجبلية
وأودّع ما بيَ من ضجرٍ وأنينْ
واسمِّي يديكِ الطيور الأميرة
أسمِّي خطاكِ الأغاني

أسمّيك مملكةً
وعلى بابها
سأرتّل أشعار نصري الأثيرة
بانتظار الندى
والبروقْ...»

كنتُ أحبها ذاك النوع من الحب الذي يمكنه أن يطهِّر حقدي حتى على أعدائي الواقفين على رمية حجر. لم يكن الحجر قد أُكتشِف بعد.

لم يكن المكان ضيقاً ولكنه كان يضيق. لم أعد أتذكر شيئاً مهماً. ذاكرتي تحاول إلغاء تلك اللحظات السود لكي يستطيع رجل في الـ 27 من عمره الاستمرار في العيش. أعاود تذكير نفسي بالمشاهد الأقل أذىً، الأكثر إشماساً، الأقل موتاً.

لا أعرف من كان يدفن القتلى ولا أريد أن أعرف!
لا أحد يعرف!
لا أحد يريد أن يعرف!

هجم الصحافيّون على بيروت عند اشتداد القصف، وكانت أحد الفنادق وهو «الكومودور» منتجعاً لهم كأن شيئاً لم يقع البتة، كأنهم كانوا عارفين بحدود الهوج أو متفقين مع القاصفين على المسافات والحدود الدقيقة التي يطالها. كانت النقاشات وكؤوس البيرة وقناني النبيذ مشهودة في صالة الفندق. هجمنا جميعاً على الفندق. أتذكر اللحظة من رواده ميشيل النمري والمصورة الفوتغرافية الإيطالية «باولا» التي كانت تعيش بين ظهراني المقاومة وداوود تلحمي وغيرهم الكثير.

لكي يضيقوا الخناق على أعدائهم، كان الإسرائيليون يقومون، بين فينة وأخرى، بقصف يطال أماكن منتخبة لا يطالها القصف عادة من بيروت الغربية وقد يصل إلى أطراف الفندق مثلاً، أطرافه فحسب، ويطال كذلك مساحات فارغة في أماكن تعتبر عادة أمينة مثل الساحة التي تقع بالقرب من شقتي في الشارع المتفرع من الحمرا. عندما انفجرت القذيفة هناك فإن جسدها الفارغ انقذف نحو الشقة مصطدماً وسط ذعري ورعب هاشم بالجدار وليس بزجاج الشقة لحسن الحظ. عندما صعدنا بعد حين من الملجأ وجدنا جسد القذيفة النحاسي ذاك وقد تشقق كما لو على هيئة أصابع عصبية منطوية. أنا الذي سمَّيتُ بقية القذيفة بـ «كف الشيطان». زارنا سعدي يوسف وعرضنا عليه يد الشيطان. أعجبته التسمية واستخدمها

في إحدى كتاباته عن الحصار.

مع جدية الموقف كانت تتعالى وتيرة الهروب من بيروت. كانت البنايات تُهجر تماماً مرات كثيرة من سكانها حتى في الحمرا نفسها بعد توقع اجتياح اسرائيلي للمدينة. لهذا السبب فإن الجمع المتجمهر في شقتي كان يجد لنفسه أماكن فارهة من دون إيجارات بالطبع.

لم يتبق معي في آخرة الأمر إلا هاشماً. كان الباب يُطرق بعنف على يد «غيلان» الذي أرى الآن شفتيه المبلولتين. هجم علينا مرة ساخراً أو مخوفاً إيانا بحربة الكلاشنكوف. بعدها قرأ لي في الشرفة نصاً طويلاً جميلاً مستلهماً من «سان جون بيرس» الذي كان ملهمه الأول. أحياناً كان جليل حيدر يدق الباب مستوفزاً لأسباب غامضة. كان سعدي يصل كذلك إلى شقتي، متواضعاً ذاك التواضع القديم المقدر تقديراً عالياً.

بعدئذ كان هناك «هدوء حذرٌ» ووقف لإطلاق النار يستهدف إقناع الفريسة للنجاة على الأقل بجلدتها المدماة.

كنت قد تعرفت إلى رشاد أبو شاور وعز الدين المناصرة في بيروت، وغيرهم الكثير من أصدقائي الشعراء والكتاب الفلسطينيين. المناصرة كان سكرتير تحرير جريدة «المعركة» الصادرة لمناسبة الحصار وكان رشاد ينهمك في كتابة ساخنة يومية فيها. نشرتُ في «المعركة» بعضاً من قصائدي مثل «وداعاً علي فودة» «وداعاً نـعِمْ» «وداعاً مهند» من بين مواد أخرى.
لم أرهم، كما لم أر غالبية أعزّتي في تلك اللحظة لأن الجميع كانوا منهمكين بفعل ما، صغير أو كبير، يعزز البطولة المفقودة في أرواح العرب. كان الجميع منشغلين بجلال الدم وبغموض الآتي، ويشتغل من طرفه، حسب قدراته، صقر أبو فخر ويحيى يخلف وصديقي القاص علي حسين خلف.

أظن أن الورود التي قُدِّمتْ إلى الإسرائيليين عند استقبالهم في الطرف الآخر من بيروت كانت أسيانة ومُرْغمة دون عزاء. كان الألم يتوغل عميقاً في الروح لمشاهدة الوردة أمام الدم. كان الأخ يمد بساطاً احتفالياً لاستقبال شارون من أجل أن يطرد عن روح المكان اللبناني الهاجس الفلسطيني المهيمن، من أجل أن يطرد العلة والسبب من ذاته هو نفسه.

كان أرئيل شارون يتطلع بمنظار حربي مقرِّب واقفاً على سفح من سفوح بيروت الشرقية مراقباً بيروت الغربية. عندما نشرت صورته في الجريدة اليوم التالي بهيئته تلك، قلت لهاشم بسخرية:

– يبدو أننا – الإثنين – صرنا مراقبين من طرف شارون شخصياً بعد أن فلتنا من رقاباتنا المحلية..!

كان شارون يحدق في أحشاء المدينة وكان يفكر يقيناً بالكيفية التي يدمر بها أحشاء سكان المدينة.

كانت الإذاعات تدق طبول الحرب .
«بيروت حزينة» ظل مارسيل خليفة يعاود القول في نهاية المطاف إلى جوار تلك الـ «أناديكم.. وأبوس الأرض». كان للأرض طعم موجة مالحة، طعم اليود المتوغل في الجرح. وكانت هذه الأرض، ذاك التراب اللبناني يعني بالنسبة لي شيئاً محدداً بدقة، ملموساً، عزيزاً، عضوياً، حارقاً، لاذعاً، متغلغلاً في الخيشوم ومتناثراً على الكتفين: شيئاً من طبيعة رحمية، عشقية، وسواسية لكن سامية.

ثم قرر شارون أن يناثر من طائراته الحربية المحلقة عالياً جداً، منشورات تحض سكان بيروت الكرام على مغادرة المدينة متوعداً خلاف ذلك عقوبة توراتية. قرأتُ المنشور بغيظ ودعسته.

لم تكن السماء التي تنثر تلك الأوراق واطئة. لو أنها كانت لمزقتها الأظافر المسعورة شر مزقة.
حسرتي كانت تتضاعف، ليس فقط لأن بيروت محاصرة وكئيبة، لكن، أيضاً، لأن قدماً سوداء استطاعت أن تطأ ترابها العتيق وتلامس جدرانها.

عاودتُ الذهاب، مرات متكررة إلى الفاكهاني. بنايات أجهزة المقاومة كلها كانت مستهدفة بدقة متناهية، هذا يعني أن هناك الكثيرين ممن كانوا يشيرون إلى العدو بإحداثياتها الدقيقة.

بين فترة وأخرى كنت أرى إلى رجل أو إلى سيدة على شرفة من الشرفات وهما منفردين انفراداً بالغ الغرابة وسط وحشة المشهد. ما الذي يفعلون يا ترى وسط الهباء؟ لعلهما قد يأسا تماماً بحيث إنهما لم يعودا التفريق بين نبضة الحياة وهمود الميت، أو أن كلايهما بالنسبة لهما سواء. بالنسبة لي الحياة والموت ليسا سواسية، وكنت أفضل حيوية الكلاب المتهارشة لتدعيم غريزتها في الكينونة البلهاء على غريزة القتلة.

كانت كمية الخراب جديدة على بقعة جميلة وأمومية. لم يكن يليق بمكان حنون أبداً ذاك الخراب.

كان فوحان القيظ يمنح المشهد أسىً كأنه كان يفوح مع سخونة الهواء، أسىً يسيح على إسفلت الشارع المتوهج بالتماعات الأشياءٍ المعدنية المتبخرة في أماكنها، أسىً ذا فظاظة يتمكن من عصب الأصيصات

الصغيرة نفسها التي ظلت ثابتة في شرفاتها رغم الحصار.

كان شارون يتطلع بمنظاره نحونا يقيناً، وكان بخار القيظ يوقظ حس الحيوان المتوحش لدى الغزاة.

ازداد خروج العراقيين إلى الشام. كانت سفارة اليمن الجنوبي «يومئذ» تهيئ لهم جوازات سفر يمنية وتعبر بهم سياراتها الدبلوماسية بيروت الشرقية الواقعة تحت الحراب الإسرائيلية. خرجوا رويداً رويداً، النساء أولاً ثم الهيّابون من أولئك الرجال.
كان الجميع يتشبث ببيروت. لا أحد رغب بالخروج طواعية من بيروت إلى برّ السلامة. كانت هذه المدينة تمثل بالنسبة لنا التحقق الكلي لفكرة الحرية الغائبة في عالمنا، الحرية بمستوياتها الطفيفة ومستوياتها الراقية. أن تذهب امرأة عراقية إلى شاطئ البحر كي تستحم بالمايوه كان في بادئ الأمر صدمة كهربائية لأولئك الذين لم يلمحوا منها سابقاً إلا ما يُلمح عادة من الخارج عند امرأة عربية: العورة. أن يرونها بالمايوه، حتى لو كان من قطعة واحدة، فذلك موقف الجسارة في التطلع إلى ما كان مخفياً لوقت طويل في العراق. حرية مفاجئة قد توغلت إلى الأبد في أرواح العرب في بيروت، وسيظل طعمها عالقاً في أرواحهم إلى الممات ، بسبب روح المفاجأة والمباغتة فيها بالدرجة الأولى، وبسبب وفرة ما كان محرماً، وما زال في العالم العربي، بدءاً من جيب صديقنا «سمير» المنتفخ بكميات من أعشاب مزارع بعلبك، مروراً بالبسيط مثل تناول السندويشات اللذيذة على نواصي الشوارع، شراء قنينة من العرق، السهر على الساحل أمام ملوحة الموجة، التردد على سينما «بافيون» الجنسية مقابل الجامعة الأمريكية. كانت تلك الحرية ملتقاة بشكل أخص في قدرة العربي في التعبير عن أفكاره السياسية بطلاقة ومن دون رقيب. كان «المختلف» يسود في بيروت رغم هيمنة «المؤتلف» القادم مع طوائف العرب المتسمية بأسماء الأحزاب والمنظمات.

كان الخروج من بيروت هو الخيار الوحيد المتاح.

بعض البوارج الحربية كانت تُشاهد بالعين المجردة من سواحل بيروت. لهيبها كان يُضاف إلى اللهب العام الطالع من الجهات الأربع. ولعل في ذلك دالةٌ رمزية: إنّ العالم بشماله وجنوبه وشرقه وغربه كان يُحاصر فلسطين. على أية حال كنتُ، شخصياً، أؤول حصار بيروتي على هذه الشاكلة.

كانت القلوب الأربعة مقدودة من صوَّانٍ يخفق للصوَّان. صوَّانٌ قادم من كونٍ سديمي لا تاريخي كان يضرب في بقعة محددة ومخصوصة من بيروت، قادماً من عماه الأزلي. كانت الصباحات رغم ذلك أكثر جمالاً من أي وقت مضى وأندى من تلك الصباحات التي عوّدنا عليها صيف لبنان.
كان حصاراً جوهرياً، بدأت معه رايات العرب تترنح بشكل جدي. وكان يستهدف هذا الأمر تماماً: أن

يمرّغ أنف أمةٍ بالتراب..أيَّان له. وقد كان له أن يفعل لحظتئذ بنجاح ساحق. لم يتحرك لا السوفييت ولا الشارع العربي إلا كمن يتحرك فجراً بصعوبة من نومةٍ عميقةٍ بعد تعب 14 قرناً من الـ تنقل بين غبـار المعارك.

كانت البوارج مرئية بالعين المجرَّدة وهي تنافس دلفينات المتوسط في ارتياد مكان الغروب الجميل. كانت الشمس تختفي الآن خلف تلك البوارج السود بالضبط.

لو كانت الحجارة تصل إلى عرض البحر لرماها المحاصرون بالحجارة. لو كانت هناك طيور أبابيل عربية فعّالة كما كانت فعالة مع ابن عمنا القديم أبرهة، لحدثت معجزة القرن.

كان الهدف من الحصار، كما يُقال، تحطيم البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية بكل الوسائل مثلما يحدث عادة في ظل شارون وزيراً للحربية قديماً ورئيساً للوزراء فيما بعد.
لم يُتابع أحد من نزلاء ذاك السجن الكبير، بيروت المحاصرة، شاشة التلفزة بسبب تدمير محطات توليد الكهرباء. عقدالإسرائيليين تكمن في طاقة الكهرباء على توليد النور. إنهم يريدون أن يطفئوا ضوء العالم العربي عبر إقنومه الفلسطيني.
كانت المحركات المشتغلة بالزيت تعمل بأقصى طاقاتها في غالبية البنايات المعمورة بالسكان. ثم أنهم قطعوا الماء عن بيروت الغربية. يعني أنهم أرادوا إذلال الكائنات الحية المحاصرة، اللبنانية والفلسطينية والعربية وغيرها ممن كان يدب في ذاك النطاق الضيق من الأرض. كنتُ أخرج بصفيحتين بلاستيكيتين وأقف بالدور أمام مضخة يدوية «وفي أحيان أخرى تشتغل بالمولدات المنصوبة في كل مكان». لا أتذكر فيما إذا كان هناك نبع قديم أم كان هناك مصدر آخر للماء. كنتُ أقف مع صبيات وشبان ونساء شيوخ من أجل الماء الصالح للشرب.
لم يكن ما سأسميه النبع يبعد كثيراً عن بنايتي. كنت أحمل الصفيحتين بصعوبة، وعندما كنتُ أصل الأستوديو كنت أتحمم ويتحمم كذلك هاشم. ثم أننا كنا نعمل شاياً ساخناً ونقعد بانتظار المعجزة.

كانت فظاظة القصف تتغلغل، في نهاية المطاف، في المكامن الأكثر سرية من الجسد البشري. كان القصف يصير يومياً بعد الشهر الثاني من الحصار، ورغم أنه كان يختار أهدافه محددة بدقة، فإنه كان عشوائياً في أحيان كثيرة أخرى وذلك من أجل إقلاق الكائنات ودفعها للشعور بأن الخروج هو الحل الوحيد لكينونتها. كان القصف يتحول إلى غولة فظيعة، مزرّدة بالرصاص ومسننة بالموت. غولةٌ يمكن أن تطلع عليكَ في أية لحظة وتغتالك. ففي بعد ظهيرة صيفية كسولة وأثناء المفاوضات كنتُ أشرب شاياً مع هاشم شفيق عندما ابتدأ القصف. بعيداً أول الأمر، ثم بدأت الحيطان الأقرب تهتز. أسرعتُ لكي أضع

جوربي، وضعت جورباً واحداً ثم «بُـم» قذيفة ظننتها في قلبي. ركضنا سوياً، هو عاري القدمين وأنا بجورب واحد لكي نلحق جماهير البناية في الملجأ الرطب. لهاث عال، ثم عندما أبصرنا بالقدمين وبالجورب اليتيم، انفجرنا بضحك قوي، نادر، صاف.

صار مؤكداً، في الأسابيع الأخيرة، أن الحصار مطبق، وأن مطلب الإسرائيليين وحلفائهم ليس خروجاً جماعياً للمقاومة كلها، وصارت تتسارع وتيرة طلوع أصدقائنا، الغالبية إلى الشام، الواحد تلو الآخر. السيدات العراقيات خاصة وأزواجهن فيما بعد.
أجرى يوسف الناصر تصفية لأوراقه الشخصية وأودع عندي مجموعة منها. هاشم شفيق الخارج إلى الشام بدوره أودعني قصاصات فيها مقابلات صحافية قديمة تتعلق بجيلنا، وهذه سأفقدها سنة 1983 في طرابلس لبنان في حصار آخر.

لم أجد أمامي في النهاية سوى عادل طه سالم «المقتول قتلاً فيما بعد في بلغاريا». كان عادل قد دأب على الانهماك بالكحول في تلك الشهور العصية. كان يصل بقامته الجميلة وبعينين شبه مخدرتين شاعريتين. لم نكن نتبادل من الأحاديث إلا أمرَّها وأقلها. ثم أنه خرج إلى الشام.

شعرتُ إذن بالوحدة والعزلة والمهانة. كان الفراغ مطلقاً وكانت الوحشة تجالسني. كادت أعصابي أن تفرط، حرفياً، لهذا السبب، وكنت أشعر بأنني غير قادر على تحريك أصابع يدي. كانت الاستعدادات الجدية تجري للخروج. كانت «عايدة» قد استقرت مع عائلة فلسطينية في فندق لا يبعد كثيراً عن بنايتي. كنت أذهب إليها وكانوا يقومون بتدليك ذراعي وأصابعي. كنت استشعر، على الأقل، ببعض الحرارة الإنسانية وكانت أعاود ممارسة الأمل. قالت لي بأنني يمكن أن أبقى في بيروت معهم في المخيم حال انجلاء الموقف، واقترحتْ أن يزودونني بوثيقة رسمية تخص أخاها المستشهد في لبنان لكن غير المُعلن أبداً عن وفاته للسلطات اللبنانية. وقالت إنهم احتفظوا بالوثيقة ليوم عصيب كهذا ولشخص، ربما احتاجها يوماً. لم أوافق.

كانت رائحة العطر تختلط برائحة الحزن. سلَّمتُها بعض كتبي وحاجياتي الرئيسة مثل بعض أفلام ألـ (Super 8) التي كنت ولا أزال من هواة تصويرها ووضعتُ كل شيء بكيس بلاستيكي كبير أسود اللون على ما أتذكر.

سلَّمتُ كذلك حقيبة جلدية أخرى أو شيئاً مشابهاً، لم أعد أذكر اللحظة، فيها كمية من الأوراق الرسمية والشهادات الجامعية إلى صديقي اللبناني «سركيس أبو زيد» أحد ناشطي ومقاتلي الحزب القومي

الاجتماعي السوري الذي قيل لي بأنه قد زهد أخيراً في الدنيا تماماً منعرجاً في تجليات التصوف الصافي.

أليس أمراً ذا دلالة رمزية أن تكون «عايدة» هي آخر من يودعني أمام الملعب البلدي في الفاكهاني بانتظار الشاحنة التي ستقلنا إلى الميناء. وكما كان مطلوباً يومها كنتُ أرتدي بدلة عسكرية نفطية اللون. وكنتُ أقف أمام المصوِّر الذي سيلتقط لنا بكامير «البولرايد» الفورية صورة تضمني وعايدة والشاعر قاسم مهدي وصديقته. الصورة بحوزتي إلى الآن.
انطلقت الشاحنة إلى الميناء تحت زغاريد اللبنانيات في شرفاتهن ورشيش الأَرُزّ: رمز تمجيد الأحبة، عند سفرهم أو عودتهم المأمولة.
انطلقت الباخرة اليونانية إلى عدن تحت حراسة البوارج تلك عينها لبعض الوقت. اختفت البوارج وظلت الباخرة تترنح في المتوسط ثم في البحر الأحمر طيلة أيامٍ سبعة، هي أيام الخلق السبعة.

(أيار 2001)

*** شاعر عراقي يقيم في جنيف.**

(1) جزءٌ من كتابٍ بالعنوان نفسه.
(2) الكلمة تشير إلى المكان الذي يتجمهر فيه فجراً عمال المياومة، بانتظار أرباب العمل الذين يصلون ويختارون من بينهم الأكثر قوة وتحملاً على العمل اليومي الشاق.
(3) «أيام الجمر» هو عنوان اختاره لاحقاً سعدي يوسف ونشر في عدن عن «دار الهمداني» 1982 ويتضمن مقالات وقصائد عن حصار بيروت. لم يدرج لي سعدي نصاً من تلك النصوص إلا في اللحظة الأخيرة وبعد إلحاح شديد من طرفي.

المشاعر، أيضاً، تنمو إلى خيار ثقافي

سامر أبو هوّاش*

حين كنّا صغاراً في المدرسة، كان فَرْضُ الإنشاء الأساسي يأتينا غالباً بسؤال من هذا القبيل: «صف لنا رحلة إلى الغابة»، أو «صف لنا نزهة مع العائلة إلى الحقل» . مثل سائر الأولاد كنت أحاول الإجابة على هذا السؤال المنطلق افتراضاً من تجربة معيشة، لكنني غالباً ما كنتُ أفشل، كان السؤال حين يأتي على هذا النحو يأتي مقروناً بالجواب، أو أن الجواب يأتي مع مقدم السؤال نفسه: «استيقظنا صباحاً .. وضَّبنا الحقائب .. ركبنا السيارة .. كان الحقل أخضر .. عدنا وكنّا سعداء ..» . على نحو تلقائي كنت مثل غيري أعرف حين أرى السؤال المبتوت بصيغة الأمر الجواب المتوقع. وإذا كان المنهج المدرسي وبخاصة حكايات كتب القراءة تساعدنا نظرياً على فهم ما يعنيه «الحقل» أو «الغابة»، خاصة إذا أرفقت الحكاية بالرسوم، فإن ذلك لم يكن من شأنه التخفيف من صعوبة المهمة بالنسبة إلي. الأمر عندي كان دائماً موضع تشكيك في ما يتجاوز الحقل والغابة إلى الحياة نفسها . كان جو الصف مثلما الحال دائماً، ينطلق من افتراضات نظيفة حول أسلوب الحياة الذي تطغى عليه صور إعلانات الحليب المتلفزة، والذي يتناقض جذرياً مع الحياة الفعلية الموجودة بلا مواربة وبواقعية وفجاجة بالغتين في الخارج.

الصفّ كان أكذوبة، ولم تكن حكايات «الأونروا» في الكتب لتخفف من وطأة هذا الاكتشاف. كنّا غرباء، وكل ما هو حولنا ينطق بغربتنا هذه، فأي حقل إذاً، وأية غابة، أية نظافة يمليها علينا الصف المدرسي؟ في 1982 راحت تنتشر على جدران مدينة صيدا عبارة بشير الجميل الشهيرة: «لن يبقى فلسطيني واحد على أرض لبنان». أذكر ليس العبارة فحسب، بل الطلاء الأحمر الذي كانت تكتب به، والذي كان يسيل أحياناً على هامش الكلمات، كما نرى في عناوين أفلام الرعب ومصاصي الدماء. الطلاء نفسه كان إشارة مرعبة، وأظنّ أن العبارة هذه حققت هدفها تماماً، ليس في نقل موقف سياسي معيّن، بل في إشعارنا

وعلى نحو مفرط بأننا غرباء، ليس هذا فحسب، وهنا المرعب، بل وعلينا أن ندفع ثمن ذلك. بالنسبة إلى شخص يافع كان صدى هذه العبارة مختلفاً، وربما أقل إرهاباً، وربما استفزّ شعوراً بالتحدي، إذ كان يشعرَ من هم حولي أنهم «غير غرباء» بقدر ما هم محتمون بإيديولوجيا ثورية معينة تجد صداها في البعد الطائفي، فمثلما الجميع أبناء فلسطين، فإن جميع الفلسطينيين هم، بحكم هذه النظرة العاطفية المحكومة أيديولوجياً والتي لم تترجم مرة سياسياً كما هو معلوم، هم أبناء كل بلاد العرب بما فيها لبنان. هذا في عالم الكبار، أما بالنسبة إلينا نحن الأولاد فكان الوقع مرعباً، ولا يقل في إرهابه عن القصص التي كنّا نسمعها متقطعة ونتداولها حول المجازر التي يرتكبها «الكتائبيون». كانت مخيلتنا تبدو عاجزة أمام وصف الغابة أو الحقل، لكنها كانت تسرح بسهولة في تخيّل السكاكين والفؤوس وطرق الخطف والذبح وما إلى ذلك.

أطفال آخرون غير خاضعين للظروف نفسها، ولا يتعلمون في «المدارس» نفسها، كانوا يبدون أكثر شبهاً بالكتاب المدرسي وبحكاياته منا. أذكر أنني كنت أنظر إلى أحد هؤلاء الفتيان، حين أصادف أحدهم في الشارع مثلاً، بالطريقة عينها التي كنت أنظر فيها إلى أطفال كتاب القراءة مثلهم كانوا يبدون نظيفين وكانت حياتهم النظيفة تلك تبدو قابلة للتصديق، بقدر ما كانت حياتنا عصيّة على الفهم. لم تكن طفولة على ما أظنّ، ليست تلك الطفولة التي أشتهيها الآن لأولادي، والتي لا تتصل بترف أو رخاء ما، بقدر ما، بنمط عيش كان عليَّ أن أكتشف لاحقاً أنه نمط ثقافي، بالمعنى الواسع، غير الكتبي للكلمة. ذلك أن إحدى مشكلات البيئة التي جئت منها، وخارج السؤال الفلسطيني، أنها تعمّم الفقر أو النقص المادي على نواحي الحياة كافة، فيصبحان فقراً ونقصاً جوهريين، يصيبان ما عدا تدبير شؤون الأيام، الروح نفسها؛ تلك الروح المخدوشة، المجروحة، هي دائماً في خلفية سلوك «أهلي» ونظرتهم إلى الحياة. فيصحّ أن يعمل ولد مثلي، وأن يختلط باكراً بعالم الكبار، لا لضرورة محتمة، إذ لم يكن يكفي ما أجنيه مصروفاً لي، بل لأن الوضع القائم يملي ذلك بداهة؛ هذا ما أعنيه بالنمط الثقافي: بداهة أن لا تعود طفلاً، في نظرة ترى الحياة مشروعاً مؤجلاً باستمرار.

أحسب أن التفكير بفلسطين والارتباط العاطفي الميتافيزيقي (المبتوت الصلة بأي تفكير سياسي) له صلة، وإن غير مباشرة، بهذه المسألة. أخواي الأكبران، فضل وإسماعيل، التحق كل منهما بجناح من أجنحة «فتح»، ليس بالدافع النضالي الخالص وحده (ولا أشك لحظة بهذا الدافع)، بل بدوافع وخلفيات أخرى، ليست بعيدة منها الثقافة التي ذكرت. وهذا كلام بطبيعة الحال لا يدين أحداً، سوى المنطق الشائع والعام جداً، الذي يدفع الضحية إلى أن ترى حياتها حصراً بمنطق الضحية.. حين ينغلق الأفق الشخصي تماماً لا يعود أمام الأشخاص، وحتى الجماعات، سوى التعلق بحلم غامض قدسي لا نهائي. فلسطين كانت دائماً وباستمرار هذا الحلم بهذا المعنى الغيبي للكلمة، ولذلك ربما لم ننجح حتى الآن، عرباً وفلسطينيين، في أن نرى فلسطين واقعاً متجسداً. لقد تحولت فلسطين إلى فكرة، أغنية، وصار لغيابها أو لطقسها طقوساً تفوق حضورها بكثير. أمعنّا في خسارة فلسطين حين حلمنا بها كثيراً وفكّرنا أقل. أقول هذا كي

لا أرسم «صورة الحقل» الذي لا أعرفه مجدداً. كان هناك في بيتنا جو دائم من الخوف والقلق، ولا أزال أذكر المشاجرات التي كانت تنشأ بين أخي وأبي، خاصة حين يذهب أحدهما في دورة عسكرية تستمر أياماً. أذكر المسافة التي كانت تقطعها أمي، وتصطحبني معها غالباً، من صيدا في الجنوب إلى أحد معسكرات البقاع التدريبية، الذي تكون أصلاً اهتدت عليه بعد جولات بحث طويلة على مكاتب عدّة، فقط للاطمئنان على إسماعيل، وإعادته إلى البيت إذا أمكن.
بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان، واعتقال اسماعيل أياماً لدى الإسرائيليين، وإصابة أخي فضل، قام أبي وأمي بكل ما في وسعيهما كي يسفّرا أخي إلى الخليج، حيث كانت تقيم منذ سنوات عدة أختي الكبرى مع زوجها، وبالفعل نجحا في ذلك. إحدى صور طفولتي هي الوداع الخاطف لأخي، حيث كنت عائداً من المدرسة، لكنني لم أشعر بغيابهما، إذ إنه كان امتداداً لغياب سابق . في العام 1984، عائداً من الخليج دون علم أحد، استشهد أخي الأكبر اسماعيل في عملية استشهادية في القدس. المشهد لا يزال ماثلاً أمام عيني. كنا أنا وأخوتي نشاهد المسلسلة الكوميدية ذائعة الصيت وقتذاك «بنتان وشاب»، حين دخل أبي منهاراً وهو يردد «مات الولد..».
أذكر العتمة التي هبطت فجأة على البيت والتي استوطنته مذّاك. نسيت على امتداد السنوات وتعاقب الأحداث الكثيرة من الأشياء، لكنني لم أنس هذه العتمة ولا انطباعها الغامض فيّ. من ضباب ما في الذاكرة أحياناً وجه إسماعيل وهو يناولني لوح شوكولاته، ويوصيني بأن أكون مجتهداً في المدرسة. لا أعرف إذا كانت هذه الحادثة حدثت حقاً، لكن على الأقل تكرارها ومعاودة ظهورها على شاشة ذاكرتي طوال السنوات الفائتة جعلها كذلك. إسماعيل الذي لم أعرفه، إسماعيل الذي عرفته إلى هذا الحدّ، كانت تلك بداية علاقتي بالشعر.
كتبت قصائد لإسماعيل، للشهادة، ولقيم أخرى لم أكن أفهمها ولا أدعي أنها كانت تعني لي شيئاً، بلغة ساذجة، غنائية، برانية . برانية أي أنني لم أكتب حتى مشاعر الطفل الذي كنته، بلغة الطفل الذي كنته، كتبت ما يشبه: «صف لنا رحلة إلى ..» . هذا أمر أعيه الآن بالطبع، وأعي ما هو أكثر من ذلك؛ إن الشعر بطريقة من الطرق هو استعادة دائمة لا تنتهي، ومحاولة فهم مستمرة، ربما، ليس لما عشناه من وقائع وأحداث، بل لتلك المشاعر والانطباعات الصغيرة التي عرفناها ونجهل غالباً مصدرها الحقيقي.
قبل ذلك، أعني قبل هذا الوعي، لم يكن الشعر بالنسبة إلي أكثر من شعار أحمر على جدار يقول: «لا نريد فلسطينياً ..»، لم يكن أكثر من انعكاس لجواب يريد الآخرون سماعه، لحكاية مكررة، وباختصار لم يكن أنا، كان على موت أخي أن يصبح حدثاً شخصياً بالنسبة إلي لا تصالح معه، وبالأحرى مع ألمه غير المفهوم، وكان على ذلك أن يحدث من خلال حدث آخر لا يقل وزناً في ألمه عنه، وهو موت أبي.
كانت ثقافتي الشعرية بدأت تتسع في بداية التسعينيات، لكنها لم تخرج عن أسماء مثل ناظم حكمت ونيرودا وبريخت والجواهري ومحمود درويش (في أعماله الأولى) وأدونيس (في أعماله الأولى، أيضاً) والبياتي والفيتوري وسميح القاسم ومحمد علي شمس الدين .. تماماً مثلما كان نموذجي أو «مزاجي» في

الغناء يقوم على أسماء محددة، مثل مارسيل خليفة والشيخ إمام وأحمد قعبور وسميح شقير وفرقة عراقية لا أذكر اسمها .. الخ، وهذه في أية حال شكّلت ذخيرة جيدة بالنسبة إليّ، لكنها كانت تمضي في اتجاه واحد وفي حلقة مغلقة، تعكس ربما تطوراً بدهياً للطفل الذي كنته. كان أبي منتسباً إلى الحزب الشيوعي اللبناني، وفي أحد أعياد الحزب التي أقيمت قبيل موت أبي بقليل، طلب مني أبي الذي بدأ يصدق أنني أكتب الشعر أن أنظم قصيدة وأن ألقيها في الحفل. سهرت ليلة كاملة مقلباً في دواوين الشعر التي أملكها محاولاً العثور على نفس أقتبسه للقصيدة التي سأكتبها والتي يفترض بها أن «تهزّ الحضور وتخضّه خضّاً»، وجدتُ أخيراً مبتغاي في قصيدة الفيتوري في رثاء عبد الخالق محجوب، واقتبست نفسها وتركيبها بالكامل حتى خرجت بقصيدة مقفاة بعنوان «احفرك في جلد المجرّة»، وقمت بالفعل بإلقاء القصيدة ونالت إعجاباً كبيراً حتى أن صحيفة الحزب أفردت لها مكاناً واسعاً في إحدى صفحاتها. كان كل ما فعلته وقتذاك هو العودة إلى التمرين القديم الذي بات حرفة من نوع آخر أي «صف لنا غابة ...» . اليوم أفكّر أنه كان يمكن أن أستمر على هذا النحو، وأن أصبح شاعراً «خاصاً» ضمن هذا الإطار فقط، ككثر من الشعراء الذين ينظّرون لهذا النوع من الشعر (ولهذه النظرة إلى الحياة): القصيدة التي ذكرتها «أحفرك في جلد المجرّة» كان يمكن أن تتناسب اليوم واستشهاد الطفل محمد الدرة، مثلاً، ما دامت القافية موجودة وجاهزة، وكان يمكن أن تمضي القصيدة على هذا النحو «أحمل اسمك يا درّة/ أحفرك في جلد المجرّة/ وأرفع رايتي الحرّة»، وما إلى ذلك من «بذاءات» لغوية وشعرية وعاطفية. أول منعطف ربما يخوضه أي شاعر وأي كاتب هو الخروج من هذه البذاءات وعليها، بذاءة العام، الخطاب العام، النفس العام، وحيث لا مساحة لقراءة خاصة ذاتية، ولا لحب أو «انتماء» أو «هوية» من نوع خاص.

كان علي أن أفهم أثر موت أخي فيّ من خلال موت أبي.

لم يمت أبي المناضل القديم اغتيالاً (كانت سادت وقتذاك ظاهرة اغتيال الكادرات الشيوعية في صراع قوي داخلي إقليمي)، ولا استشهد بقصف إسرائيلي (وكاد ذلك يحدث لولا الحظّ) .. بل مات غرقاً. كان أبي سبّاحاً ماهراً، ولم يكن أحد ليتوقع أن يموت بالبحر. ذات ظهيرة اعتيادية قفز أبي على صخرة تغمرها المياه ومات. هكذا ببساطة شديدة. رسمت مثل كُثُر سيناريو اغتيال ما، وتشبثت وقتاً بهذا السيناريو، وكان علي أن أصدّق أخيراً أن أبي مات على هذا النحو بالذات. جاء السادة في الحزب وعزّوا، كتبوا كلاماً في الصحف، وظلّوا عاماً أو عامين يترددون في ذكرى أبي على بيتنا، تماماً كما ظلّ قادة أخي يترددون على بيتنا في ذكراه، إلى أن خلا المشهد من كلّ شيء. وقت قصير مرّ واكتشفت كم هو فاجع بالنسبة إليّ ما حدث بعيداً عن أي شعور، سوى شعور الابن بفقدان أبيه، وأنّه بات وحيداً تماماً في العالم.

أحد رفاق أبي كان أهداني بعد إلقائي القصيدة المذكورة دفتر مذكرات للعام 1990، بدأت أوراقه بتسجيل وقائع حرب الخليج مثلما كنت أشاهدها على شاشات التلفزة، لكن حين مات أبي ذهب سردي لتفاصيل حياتي في اتجاه آخر. وحين أنظر إلى هذا الدفتر اليوم أجد نصفه مليئاً بكلام عاطفي حماسي ثورجي

حول ما كان يحدث، ونصفه الآخر يتحدث عني، عن مشاعري الخاصة، عن أبي، عن شعوري باليأس والعزلة وانسداد الأفق. بدأت عند هذا المفترق أنظر إلى نفسي، إلى ما يجول في داخلي من هواجس ومخاوف، وبدأ دفتر اليوميات يتحوّل إلى تلك الجهات المغفلة طويلاً فيّ، بدلاً من الكلام الفضفاض الخالي من المشاعر في ادّعائه وتقمصه خطابات وشعارات عامة.

شعرت أنّه ثمّة دين عليّ أن أؤديه أخيراً، وهو أن أقول لأبي وأخي كم أحبهما وكم أفتقدهما وكم من اللامعنى أجده في موتهما، وهو دين تجاه الذات في آن. هذا من نوع المشاعر التي سرعان ما تنمو إلى خيار ثقافي، إلى نظرة مختلفة للحياة وللذات والآخرين، وهو بطبيعة الحال، أو أنه يصبح، خياراً شعرياً، أيضاً، لم تتسع دائرة مفردتي في الشعر ولا قاموسي اللغوي، لكن حدث ما هو أهم: اتسع معنى الشعر بالنسبة إلي، صار الشعر خياراً حقيقياً، بالأحرى بت منهمكاً بهموم الشعر نفسه، بذلك السحر الذي تولد منه عبارة، لتقول أحياناً ما لا نتوقعه في الشعر وفي أنفسنا، معجزة أن الكلام له حياة خاصة به، وأنه كلما سمحنا لهذه الحياة أن تتسع وتتعدد وتتنامى أصبحت الكلمات نفسها أكثر قدرة على قول أعمق . أذكر أولى محاولاتي لكتابة قصيدة أبي، وبالأحرى للأثر الذي يتركه موته فيّ، أذكر كم وقفت عاجزاً أمام الكلمات، كلماتي التي أعرفها، وكم شعرت بالانفصام، إذ أريد هذه المرّة أن يقول الكلام ما أشعر به حقّاً، ليس ما يفترض أن أشعر به، ولا احتفال هذه المرة، ولا شهادة ولا قيم علوية مجردة، مجرّد الموت العاري مطلق القسوة. لا أستطيع أن أعيّن المسار الذي سلكته مذاك، أعرف أن قراءاتي بدأت تتخذ مساراً آخر، لكنها ليست القراءات وحدها، ولا مرّة تكون كذلك، وإن أضاءت أحياناً. كانت الحياة نفسها: فكرة أن هذه حياتي، وأن لدي ما أقوله بِشأن هذه الحياة، وعلى ضوء هذه الفكرة أدرك أن ما كتبته حتى الآن قليل جداً، كمّاً ونوعاً.

على صعيد آخر، أدرك أن ثمّة ما عليّ فعله بشأن فلسطينيتي، بشأن الفلسطينيّ الذي فيّ: كيف تستطيع أن تكون فلسطينياً على مبعدة خمسين عاماً أو أكثر؟ لهجتي مثلاً ليس فيها أيّ أثر فلسطينيّ، وهذا غالباً ما يكون مصدر عجب لكثيرين، بمن فيهم القريبون مني. زوجتي اللبنانية تقول لي أحياناً إنها فلسطينية أكثر منّي، أحار في التفكير أمام افتراض من هذا النوع: كيف يكون المرء فلسطينياً؟ أيَّ إثبات عليه أن يقدّم؟ أية لغة؟ أي خطاب؟ كل ذلك يشغلني، لكنني أدّعي أنني وصلت إلى بعض الأجوبة. ببساطة شديدة، أن تكون فلسطينياً ليس أن تولد فلسطينياً، بل أن تريد أن تكون فلسطينياً، أن تبني فلسطينيتك الخاصة، وهذا لا ينفي في أية حال أن تكون فرداً. قد أصبح مواطناً في أيّ بلد في العالم، وقد أحمل هوية أيّ بلد وجواز سفره، لكنه لن يكون كافياً ولا مرضياً بالنسبة إليّ، إذ جزء من حقي بفردية ما هو أن أكون قادراً على حمل هويّة بلدي وإشهارها. فلسطين بهذا المعنى هي أكثر من رغبة وأبعد من حلم، إنها خيار واقعي، وأحسب أنها لا تستطيع أن تكون غير ذلك. في المقابل أميل إلى رفض الصورة المقولبة للفلسطيني، سواء في عيون الآخرين أم في عين ذاته، إذ لن يقدم ولن يؤخر شيئاً شعورنا بأننا ضحايا.

بال الفتى في ثيابه(1)

بال الفتى في ثيابه، في لحظة من الرعب الخالص، وبكل ما في الصدق من فجاجة لا تصدّق، وما في الفجاجة من صدق لا يصدّق، أيضاً، بال الفتى في ثيابه. أفلتت حواسه وأعضاؤه منه. خرجت من رقابة الصورة الجاهزة، ومن إملاءات النموذج المفروض. خرجت من هذرنا ومن لغتنا الإنشائية البالية في وصف الطفولة والبطولة، أو الطفولة المقرونة بالبطولة، لتقول كلاماً من نوع آخر، ولتعلن حرية من نوع آخر. بيان الخوف هو بيان حريّة، أيضاً. بيان أننا بشر نخاف كما يخاف البشر، مثلهم نرتجف ونضعف، وحين يصل بنا الخوف إلى حدّ الرعب، حدّ ما لا يفهم ولا يشرح، حد الإهانة المحضة، نبول في ثيابنا، أو في عيوننا أو في أيدينا، لا فرق. يخرج الجسد عنا وعلينا، على صورتنا «المكودرة»، وعلى لغتنا «المكودرة» ليرسم صورته هو وحدوده هو ولغته هو. ليرسم لنا أننا بشر. يحق لنا أن نقاوم كالبشر، ومثله يحق لنا أن نخاف.

بال الفتى في ثيابه. خرج من الكادر وعليه، حتى ذلك الكادر الذي ربما يرغبه هو لنفسه، أو يرغبه آخرون له. رفعْنا محمد الدرّة إلى مصاف البطولة. جعلنا منه فكرة وصورة وشعاراً ويافطة. ذهب الولد وبقي الرمز. ذاب اللحم وبقي الشعار. نسينا أن نسأل أنفسنا لحظة تمجيدنا الدم؛ دم البطولة المعشوق: هل سال شيء آخر من جسد محمد الملتف خائفاً ومرتجفاً على جسد أبيه الخائف والمرتجف. هل قال جسد محمد شيئاً آخر قبل أن يستهلكه الحبر وتستهلكه الصورة وتستهلكه الخطابات ومواسم الحب والتضامن. أغوانا الدم، أرعبنا، بلى، لكنه أغوانا أكثر.

أنا، أيضاً، بلت في ثيابي، كنت في مثل سن الفتى حين اقتحم الإسرائيليون منزلنا العام 1983 لاقتياد أبي. كان منتصف ليل وكنت نائماً. سمعت الجندي ينهرني لأنهض وصوت أمي يقول له «دعه، حرام، إنه صغير، إنه نائم» . لا أنسى هذا الصوت ، بلت في ثيابي، خجلت كثيراً، ورفضت النهوض من شدة خجلي. انتابتني تلك الشجاعة المتأتية من الخوف، من شدة الخجل، أوقفني الجندي قرب أمي وأختي وبين قدمي كان بلل يشبه بلل ذلك الفتى الفلسطيني في الصورة. كلّهم كانوا خائفين مثلي، وحتى أبي الذي لم يرفّ له جفن حتى وهم يجرونه خارج البيت، أعتقد كان خائفاً مثلي. كان خوفهم مكتوماً، سرياً، يجهد كي لا يظهر. أما خوفي فلم يكن ظاهراً فحسب، كانت له رائحة، أيضاً. البقعة على ثوب الفتى هي خوفنا المكتوم، أيضاً، خوفنا جميعاً.

مرّة أخرى، كنت في صحبة أصدقاء في مثل سنّي في نزهة قرب نهر حين «باغتتنا» دورية إسرائيلية، خفنا كثيراً، امتدت أيدينا وحدها بالسندويتشات التي في أيدينا: تفضلوا.. كنا خائفين. بلنا في عيوننا، وفي أصواتنا، وفي قلوبنا، وفي ارتعاشات أيدينا، كنا «جبناء»، كنّا أطفالاً. بال الفتى في ثيابه، كان «جباناً»، وهو طفل. الدم الذي رفع محمد الدرة إلى حدود الفكرة، رفع قبل ذلك شهداء قانا وصبرا وشاتيلا، وغيرهم من شهداء المجازر الكثيرة، إلى الحدود نفسها. صاروا فكرة واحدة. صففناهم الواحد

قرب الآخر أو فوقه حين لم يتّسع المجال، وبنينا لهم قبراً جماعياً. صاروا جماعة وشاهداً واحداً. ربما كانت هذه طبيعة الحال، ففي حضور اللامعقول ما يتحدى التفسير والمنطق والإحساس، تسقط الملامح والأسماء والعلامات الفارقة، وتحضر الفكرة، ذلك الصنم الكبير.

لم يمت الفتى. لم يصر دماً ولا فكرة، فقط بال في ثيابه. ليقول ما لا نتوقعه أحياناً إن الخوف دليل شجاعة وحياة. وإن البول دليل كرامة.

بال الفتى في ثيابه، على نفسه، عليهم، وعلينا جميعاً.

نصوص مختارة للشاعر

شوق

لا أحد يُشفى في المرآة
ولا في الفقاقيع
التي في القلب
أو في المغسلة

ولا في الأسرّة
الصامتة

أو جدار الرطوبة
الذي يصنع وهماً
لصباح
أقرب إلى ملمس
بحر بعيد

ولا في المستنقعات

أو الشقوق
التي تولد منها البحيرات

وتساعد أحياناً على إدراك
عشبة

على فهم غيمة

الرطوبة، أيضاً
أداة تفسير
تماماً كالرمل

لكنه مجرد لمعان ضوء عميق
في البورسلان

وعلى النبتة
وما يصادف الأدراج

التي – كجثة – نغسلها
مرة في الأسبوع
ثم نعاود دفنها
بالكثير من الخطوات

ولا أحد يشفى في الأرقام
أو التعاويذ

ومع ذلك نحاول نوماً
كأن أحداً في السقف يتمّم لوحتنا
ونحن نحاول تنظيم أنفاسنا
لتخرج مستقيمة
كالكهرباء

نحاول احتضاناً طويلاً

يخفّف عتمة الفم
في صرخته الدائمة
ولهاثه الأصمّ

هكذا أصابع
تموت على مهل
في طريقها إلى النوم .

كلمات بطيئة

في جوف المرأة حرف ميت، لكنه يؤلم . في جوف المرأة حرف معقوف . المرأة تعكس رجلاً يؤدّي عناقاً كاذباً: حرف آخر مريض بالسعال، بذات الرئة، بالبلغم . حرف يتكئ على جدار وسخ .

هؤلاء الذين في مكان آخر، ولا نراهم .

حرف يقف على شرفة . حرف يظهر في مكانين مختلفين في وقت واحد . حرف يلمع في الزجاج.

لا نراهم وهم يتقدمون كألف واحدة في الكلس .

حرف مكسور . حرف لم ينم من ليلتين . حرف برقبة، فقط . المرآة تعكس امرأة تؤدي عناقاً زائفاً. الجفن غراب على شجرة عارية .

لا نراهم وهم يمشون على طحين عظامهم ويتألمون.

حرف يجلس ويتذكر . وجه ناقص محاه الشتاء . حرف في حديقة بيضاء .
في المرآة فونوغراف قديم .
الستارة عجوز تتأمل من عشرين عاماً

حرف نائم .

حرف يحلم بالبحيرات .

في المرآة صوت قديم .

في الغرفة المقفلة رجل يؤدي عجوزاً يمشي ببطء إلى جوار شجرة .

كمن يحدّق في ساعة معطلة

هذه كفّ عارية
على زجاج
من صنع البارحة

حيث البخار يؤلّف ملامح
وجه
واللمسة تعيد نظرة

البخار وحده
صديق ما غاب
وما توارى
في أدراج رأس

في ذاكرة إصبع

هنا حيث الصيف يؤلم
لأن تذكّر الأشياء أصعب
من نوم
وأقسى من شتاء
وحيث للكلمات
إحساس قرن من العتمة

وبالدائرة التي تصنعها بصمة
نرى اتساع الظهيرة
ونحاول إمساك ملمح
ما
غادر
كما ينظر من وراء غابة
كمن يحدّق
في ساعة معطّلة

نضيّق العين قليلاً
لنملأ المسافة بين الشارع والغرفة
بين الشجرة والمقعد
ولنضاعف
عدد العابرين بينهما

هكذا يصبح المرء عجوزاً
بأن يضيّق عينيه
قليلاً كلّ يوم
كي يملأ الفراغ
الذي تحدثه
نافذة واحدة
على امتداد حياة

هكذا ضباب
يكفي لإسقاط مطر كثير
على قلوب عدة

من وراء زجاج
بعد ظهيرة صامتة .

ما أكثر الآن ما أنت وحيد

العصافير تحلّق في الخارج . ما أكثر الآن
ما أنت وحيد .
العصافير تغرّد في الخارج . ما أكثر الآن
ما أنت وحيد
أيها العاطفي
ولم تترك شيئاً من تدابير
الدموع
ولم تترك
من نبرة المأسوي شيئاً
إنها تحلق، العصافير، إنها
تغرّد
في الخارج
رغماً عنك

الوجع
هو أنك جالس
وتعرف أنك جالس
الوجع
هو أنك نائم
وتعرف أنك نائم
الوجع
هو أنك حي
وتعرف أنك حي
الوجع
أنك تعرف

ستحادث الآخرين
خفّة المدخّن العاري

ستشكّل شارعاً ومشهداً
وواجهات تلمع
ورجالا متكئين على زوايا وأعمدة
ستصنع من الضحكة فكرة
ومن الفكرة أيقونة
ومن كل غبار يتأتى
ستصنع أشباحاً حقيقية
وتقودها
بأصبع الساحر
ونظرة الميت

ستبحث في الضيق من الأمكنة
عن النفس الحارّ
وفي الضيق من الجسد
عن الوردة الصاخبة
ولن تهطل عليك
نعمة الآخرين
ولن يمد جبل إليك
يد الصداقة

غراب «تيد هيوز»
واقف منذ ما قبل البارحة
على غصنك المسلوخ
لا أحد يلعب مع غراب «تيد هيوز»
لا أحد يمازح غراب «تيد هيوز»

سترسل صرخة إلى أعلى السطح
سترسل تنهيدة إلى أسفل القبو
ستقف مع الواقفين طويلاً
في الرواق الطويل

وستبحث بين الغرباء
عن غريب يعيرك صوته
وبين العميان
عن أعمى يعيرك عصاه

ولن تصل
أيها العاطفي
وما الفائدة في أن تلعن الآن
فم الدمية الحمراء الضاحكة
من الأفضل أن تلعن
اليد
اليد الثابتة وحدها في الفضاء
بقوة ما في الرعب كلّه
من سخرية

العادي يحدث في الخارج:
الثالثة والنصف عصراً
عجوز بقبعة رمادية يمشي في الشارع
بقامة متهدلة
وعينين من صنع الأمس
نظرته تصعد من الأسفلت
مع النبتة المعربشة
إلى ورقة تسقط
رمتها من شرفة
طفلة في الخامسة
رسم عليها بيت مثلث
وباب مستطيل
ونافذة مربعة
ونافذة مربعة
وطريق وسيارات

وطريق وسيارات
وشجرتان متوازيتان
وشجرتان متوازيتان
وبضعة عصافير
وبضعة عصافير
تحلق حقاً
تحلّق حقاً

ما أكثر الآن ما أنت وحيد .

*** شاعر فلسطيني يقيم في بيروت.**

(1) صورة وزعتها وكالة الصحافة الفرنسية لفتى وقد انقضّ عليه ستة جنود إسرائيليون دفعة واحدة.